ملامح الفكر الديني لإنسان الطاسيلي في المرحلة النيوليتية

أ/ عبد الحميد بعيطيش
قسم العلوم الإنسانية ـ جامعة الحاج لخضر ـ باتنة

الملخص:
عرف الإنسان العبادة والدّين منذ القدم، فطبيعته البشرية تُشعره بالضّعف أمام الكائنات الأخرى، حيث اعتنق معتقدات ومارس بعض الشعائر الدينية وجسدها على أشكال مختلفة، فنجد مثلا الدلالات الأولية للحفريات المتعلقة بالفكر الديني للإنسان النيوليتي مجسدة في شكل رسومات على الصخور والكهوف باعتبارها الشكل الغالب الذي وصلنا ووضح لنا الرصيد الفكري والعقدي لإنسان ما قبل التاريخ.

وتحتوي الصحراء الجزائرية الكثير من الملامح الأثرية التي تؤكد العلاقة العميقة بين الإنسان والوسط الطبيعي الذي كان سائدا في الفترة النيوليتية، ولعلّ من بين هذه الملامح تلك النقوش والرسومات الصخرية المنتشرة في أرجاء الصحراء الجزائرية، خاصة بمنطقة الطاسيلي والأهقار والتي يرجع تاريخها إلى آلاف السنين، فجميع الدراسات التي تناولت موضوع النقوش والرسومات الصخرية تجمع على أن منطقة الطاسيلي مثلا كانت منذ القدم ملتقى الحضارات الإنسانية القديمة، بدليل وجود معالم أثرية تدلّ على استمرارية حضارية بالمنطقة، ويعود تاريخ الاستيطان البشري بها إلى حوالي 6000 ق.م (أي في العصر النيوليتي néolithique) [1] استنادا إلى تاريخ النقوش والرسومات الصخرية، وهذا ما جعلها مركزا رئيسا لحضارة كبيرة شملت الصحراء الوسطى وامتد إشعاعها إلى باقي أجزاء إفريقيا خلال فترة ما قبل التاريخ.

ولأن الفن هو المعيار الرئيس لتطور المجتمعات كونه نتاج تفتُّق الذّهن البشري، فقد وظفه الإنسان في أولى محاولاته لتصوير حياته وفكره على جدران الكهوف والصخور بالنقش وهذا حال مختلف الرسومات بمنطقة الطاسيلي، وهنا يذهب بنا التساؤل عن ملامح الفكر الديني لهذا الإنسان من خلال مشاهد الرسوم الصخرية ومقارنة هذه المشاهد بذهنية الشعوب البدائية في عصرنا للحصول على نتائج في هذا الشأن، وهذا ما سنجيب عنه من خلال هذه الدراسة.

Abstract

Since ancient times, man knew worship and religion, It's the human nature that makes him feel weak in front of the other creators, they possessed many beliefs and practiced some religious rites then embodied it in different forms, for example, we find semantic preliminary excavations of religious thinking of Neolithic person embodied in the drawing forms on the rocks and caves as the dominant form that reached us and clarified the intellectual and religious quantities of the prehistoric man.

The Algerian desert contains a lot of archaeological features that emphasizes the deep relationship between humans and the natural environment that prevailed in the Neolithic period, one of these features, the inscriptions and the painted rocks which is scattered across the Algerian desert, especially Tassili and Hogar which dated thousand years ago, for instance all the studies about the inscriptions and rock drawings that dealt with Tassili agreed that it was the meeting place of the ancient humanitarian civilizations, as an evidenced the presence of archaeological sites indicate the continuity of civilization in the region. The beginnings of the human settlement dated by 6000 BC. (ie, in the Neolithic period) based on the inscriptions and rock drawings history, therefore, this is what made it as a key to a great civilization, including the central Sahara, and its influence spread to other African parts during the prehistoric period.

Because art is the main criterion for the development of societies as a result of taper the human mind, they used it in the first attempts to portray their life and thought on of cave's walls and rocks ,this is the situation of the various graphics Tassili's area, that’s why we are going to question about the features of religious thought of this man through the scenes of rock paintings and comparing these mentality scenes of primitive peoples with our modern time to get results under this regard, and this is what will answer through this study.

مشكلـة الدراسة:

كشفت التنقيبات الأثرية في الصحراء الجزائرية عن آثار مادية وكتابات صخرية يرجع تاريخها إلى فترة العصر الحجري القديم، مما أوحى إلى الباحثين بأن ذلك دليلٌ إما على كثافة نسبية في عدد السكان، أو أن أولئك الناس قد أقاموا

لفترة طويلة من الزمن في ذلك المكان، ومن بين هذه الأماكن الصحراوية الهامة التي استوطن فيها الإنسان البدائي منطقة الطاسيلي التي تقع في الجنوب الشرقي من الجزائر، والتي عرفت حضارة كبيرة شملت الصحراء الوسطى وامتد إشعاعها إلى أجزاء من إفريقيا. فنحن إذا تحدثنا عن الوسط الطبيعي في الجزائر، فإنما نتحدث عن أكبر جزء منها وهي الصحراء، فمن الناحية الجيولوجية، لا نعلم عن الصحراء إلا القليل، وذلك راجع إلى عدة أسباب منها:

أولاً: أن علوم الأرض نشأت في أوروبا، وهي القارة الوحيدة التي ليست فيها صحراء، لذلك لم يهتم العلماء الأوائل بتضاريس الأراضي الجافة، ومعظم من جاء بعدهم أخذ عنهم.

ثانياً: أن الصحراء واسعة ويصعب الترحال فيها، ولا يقصد دراستها إلا قلة من العلماء.

ثالثاً: يغطي سطح الصحراء خليط من فتات الصخور والرمال، ويصعب على الجيولوجي تحديد أصل الرواسب وتاريخ تطورها، وإن كنا نجهل الأحداث التي أثرت على حياة جماعات ما قبل التاريخ، فإن مساحة الموقع، ومكان تأسيسه، وطبيعة مختلف أجزائه المكونة، يمكن أن تعطينا مؤشّرات حول تركيبة الجماعة التي سكنته وبنيتها الاجتماعية وعلاقتها بالطبيعة.

وللتعرف على حضارة الإنسان الأول في الطاسيلي ومعرفة نمط تفكيره ومعتقداته والأشياء المقدسة، فقد كانت الآثار المتمثلة في مشاهد الرسوم الصخرية المادة الحية لهذه الدراسة، ولتحليل هذه الرسوم ليست بالأمر الهين، لذلك فقد اعتمدت على مجموعة من الدراسات والأبحاث التي قام بها المختصون في الفن الصخري وتتضمن مختلف الآراء التي قدموها حول المشاهد المختلفة.

تبرز الإشكالية في معرفة ملامح الفكر الديني لإنسان الطاسيلي من علاقته بالطبيعة وعبادته للآلهة وللكائنات الأسطورية والتعرف على الطقوس الدينية والسلوك الإنساني من خلال المشاهد الصخرية، ولهذا فإن طبيعة قيام نمو حضاري في الصحراء الجزائرية، وبالخصوص في منطقة الطاسيلي فيما قبل التاريخ، مسألة يصعب أن نتتبعها بدرجة ملحوظة، لأن التاريخ الحضاري يعتبر من أعقد فروع الدراسات القديمة والحديثة، والمراجع لازالت قليلة وتفتقر في معظمها إلى التّعميق والتحليل، كما أن الآثار التي أمكن العثور عليها كانت غالبيتها في حالة بالية بعد أن دمّرتها وشوهتها عاديات الطبيعة، فإن هذا القفر الواسع سيلعب دوراً في مستقبل البلاد تكون أهميته على قدر معرفتنا الدقيقة لماضيه، وأن نكران ذلك يحرفها من كل ركيزة معقولة ومن كل قيمة معلومة.

1- الموقع الجغرافي والفلكي لمنطقة الطاسيلي (ناجر)[2]:

تقع منطقة الطاسيلي (ناجر) في الجنوب الشرقي من الجزائر، يحدها من الشمال العرق الشرقي الكبير(منطقة اساون نيغرغارن وبوراغت)، ومن الجنوب منطقة عيسو وإين الزوا المتاخمة للحدود النيجيرية، ومن الغرب عرق أمقيد، ومن الشرق إن أزاق ومنطقة فزان الليبية.[3] أما فلكيا فقد اختلفت الأبحاث في تحديد حدودها الحقيقية بسبب الاختلاف في إدراج بعض المناطق ضمن منطقة الطاسيلي، فبينما نجد الباحث إبراهيم العيد بشي يحددها بين دائرتي عرض 21° و 28° شمالا، وبين خطي طول 5° و20° شرق خط غرينيتش[4]، نجد الباحث جون دوبياف (J.Dubief) يحددها بين 23° و30° شمالا بالنسبة لدوائر العرض، وبين 5° و 14° شرقا بالنسبة لخطوط الطول[5]. وتعتبر منطقة الطاسيلي هي نفسها إقليم الحظيرة الوطنية للطاسيلي التي أنشئت بموجب القرار الوزاري رقم 168 الصادر بتاريخ 26 جويلية 1972م الذي جاء في المادة الثالثة منه:

"تشمل - حظيرة الطاسيلى الوطنية - أراضى الهضبة التي تدعى - طاسيلى آزجر- وحدودها الجغرافية هي: من الشرق: الشريط الحدودي مع الجماهيرية العربية الليبية. من الجنوب الشرقي: الحدود مع جمهورية النيجر حتى وادي تافساست غربا. من الجنوب الغربي، إلى الشمال الغربي: يسلك حدها جبال ايدمبو حتى تلتقي بالجرف في علوتين - نوار، ويمتد هذا الجرف إلى أمقيد. من الشمال: يكون حد الجبل هو منطقة التماس بين الهضبة والمكثبات يجسده طريق إليزى- أمقيد المعبد غربا، وطريق اليزى تارات غير المعبد شرقا.

تشكل مكثبات ادمير وتيهوداين مناطق متاخمة وتدمج في الحظيرة[6]، وهي تشكل بذلك مساحة مقدرة بـ: 8 مليون هكتار، وقد أدرجت في قائمة التراث العالمي عام 1982م.

2- جيومورفولوجية الطاسيلي:

وتتميز منطقة الطاسيلي تضاريسيا بكتلها الصخرية من الحجر الرمادي، ترسّبت على قاعدة بلورية تسمى السهل ما تحت الطاسيلي (Pleine infratassilienne)، ويعرف في دراسات أخرى باسم النجد الأرضي المتبلور (les Payes cristallien) ، هذه الجبال التي تتقاطع بها أودية كبيرة تشكل البطون الجافة لمجاري مائية قديمة، وهو تكوين جيولوجي يأخذ شكل نتوء يمتد من الشمال إلى الجنوب، ويتواجد في سهل غرب هضبة المسالك الليبية ويمكن رؤيته من خلال الأقمار الصناعية، ويبدو أن هذه المرتفعات تمثل حدودا طبيعية وإثنية وثقافية بين سكان الطاسيلي وإقليم فزان الليبي.[7]

ويذكر بعض الباحثين أن منطقة الطاسيلي قديمة التكوين وأنها تعود إلى حقبة ما قبل الكامبري (قبل الزمن الجيولوجي الأول)، وهي مؤرخة بحوالي 600 مليون سنة، وتشمل مساحة واسعة من الجنوب الجزائري بما في ذلك منطقة الهوقار، وهو في منطقة الطاسيلي ممثل في سهول أمادرور (Amadror) وآدمير (Admer)، كما أن هناك من الباحثين من يدرجها ضمن حقبة الباليوزويك (Paléozoïque) الذي يعود إلى الزمن الجيولوجي الأول بين 550 مليون سنة و370 مليون سنة. والمنطقة في العموم ثلاثة أقسام[8]:

1- **الطاسيلي الداخلي (Tassili interne)**: يعود تكوينه إلى حقبة الكامبري الأردوفيني (Cambro-Ordivicien)، وهو واقع بين النجد المتبلور للهوقار والمنطقة السفلية لسهول الطاسيلي[9].

2- **الطاسيلي الخارجي (Tassili externe):** يعود تاريخه ما بين حقبة السيلوري (Silurien) والدوفيني الأسفل (Dovonien inférieur)، وهو يمتد بين الأخدود الداخلي للطاسيلي والمنطقة التي يقع فيها وادي إيغرغارن (Igharghareن)[10].

3- **الأخدود أسفل الطاسيلي (Sillon intra Tassilienne)**: يعود تاريخه إلى حقبة السيلوري حوالي 420 مليون سنة، وهو عبارة عن منخفض يقع في قاعدة الطاسيلي الداخلي وقاعدة الطاسيلي الخارجي وتصب فيه معظم أودية الطاسيلي الداخلي[11].

أما عن المجاري المائية والترسبات النهرية في منطقة الطاسيلي التي تُرى عن طريق الأقمار الصناعية والصور الفضائية فهي كثيرة ومنتشرة، حيث يعد توفر الماء ووجوده بكمية كبيرة العامل الأساس في تطور الحضارات الإنسانية، ورغم أن منطقة الطاسيلي تبدو جرداء قاحلة إلا أنها تتوفر على مخزون هام من المياه الجوفية تعود إلى مرحلة ما قبل التاريخ[12]، وهناك نوعان من الوديان في منطقة الطاسيلي:

الوديان المتجهة نحو أرض ما قبل التاسيلي (Les Payes prétassilien) منها وادي جرات ووادي إميهروا.

الوديان المتجهة نحو السهل تحت الطاسيلي، منها واد إيغرغارن (Igharghareن) وواد أمدور (Amadror) وواد أجريو َ(Adjereo) وواد أمستان (Amastane) وواد تارات (Tarat) وواد سامن (Samen) [13].

كما أن بعض هذه الأودية تصب في العروق، وقد ذكر الباحث جون لوكولك (J. Le Quellec) في دراساته العلمية أن عرق مرزوق (Marzougue) كان عبارة عن بحيرة في حوالي 8445 ق.م مع فارق 160

سنة أكثر أو أقل، ويستشهد لذلك بوجود صور الرسومات الصخرية المنتشرة التي تمثل حيوانات متعلقة بالأنهار والبحيرات منها فرس النهر والفيلة[14].

3- منطقة الطاسيلي خلال الفترة النيوليتية:

عرفت منطقة شمال إفريقيا تغيرات مناخية في عصور ما قبل التاريخ، وتميزت الفترة النيوليتية منها بالمناخ الرطب بعد مرحلة طويلة من الجفاف استمرت ربما إلى حدود 8 آلاف سنة، وهي تختلف حسب المناطق، وهذه المعطيات والمعلومات حصل عليها العلماء من خلال دراستهم للترسبات النهرية والبحرية في العديد من مناطق شمال إفريقيا، وينظر الباحثون في عصور ما قبل التاريخ إلى هذه الفترة على أنها نقطة هامة وحاسمة في تاريخ الإنسان، وأنها بمثابة ثورة فنية وفكرية في حياته، بحيث بدأ إنسان هذا العصر يستقر في جماعات قريبا من موارد المياه، ثم سرعان ما ألجأته الضرورة إلى العمل على ضمان غذائه، فاستأنس الحيوان، وعرف الزراعة، واخترع الفخار، وأخيرا بدأ التطور الفكري والديني للإنسان[15].

وتمتد فترة العصر الحجري الحديث في الصحراء الجزائرية من حدود الألفية الثامنة قبل الميلاد إلى غاية الألفية الخامسة قبل الميلاد، وقد أصبح المناخ مثاليا في هذه الفترة، باستثناء مرحلة صغيرة تعرضت فيها المنطقة مرة أخرى إلى الجفاف (ما بين 5500 و4500 ق.م)، ثم تلتها مراحل مناخية متذبذبة، وعموما فإن هناك اختلافا بين الباحثين حول المراحل الرطبة والجافة في الصحراء الكبرى بصفة عامة، ولابد على الباحثين من مواصلة الدراسة والبحث في هذا المجال، لأننا لا نعلم إن كنا في قمة تدهور المناخ، أو أن ذلك قد مرّ أو لم يأت بعد، وأننا لا ندري بعد الكيفية التي بها طرأ التصحر[16].

4- علاقة إنسان الطاسيلي ببيئته:

تركت الشعوب التي تعاقبت على منطقة الطاسيلي الكثير من الآثار منها مادة غزيرة من الفخار، غير أن الرسوم الملونة والنقوش الصخرية الكثيرة والمجسدة على جدران الكهوف هي التي صنعت الشهرة العالمية للطاسيلي ابتداء من عام 1933 تاريخ اكتشافها من طرف الملازم الأول الفرنسي "برينانس"، وهناك أكثر من 15000 رسم وصورة تم إحصاؤها إلى يومنا هذا. تمتد هذه الرسوم عبر الزمن حسب عدة فترات أو عهود تعكس كل واحدة منها حياة حيوانية معينة تتميز بنمط مختلف، وهذه الفترات هي:

1- **الفترة الطبيعية (Naturiste)**: وهي الأقدم، وتعود إلى فترة العصر الحجري القديم.

2- **الفترة المسماة بالقديمة أو العتيقة**: الحيوانات المرسومة في هذه الفترة كثيرة جدا وتتناسب مع مناخ رطب.

3- **فترة رعاة البقر**: تمتد هذه الفترة من 4000 سنة قبل الميلاد إلى 1500 سنة قبل الميلاد، وهي الأهم من حيث عدد الرسوم المحفوظة التي تتميز برسوم للأشخاص وقطعان الأبقار، ومشاهد من الحياة اليومية.

4- **فترة الخيول**: تغطي الفترة نهاية العصر الحجري الحديث وهي تصادف اندثار العديد من الأنواع الحيوانية بسبب الجفاف، كما تتميز بظهور الحصان (رسوم لخيول متوحشة وخيول مستأنسة موصولة بعربات).

5- **فترة الجمال**: بدأت في القرون الأولى من العهد الميلادي تتصادف مع ظهور الجمل.

تملك الحيوانات والنباتات هنا خصائص تميزها عن غيرها وهي تعود إلى فترات ما قبل التاريخ عندما كانت منطقة الطاسيلي أكثر رطوبة بكثير مما هي عليه الآن، ففي هذا الوسط عاش أناس وأنواع مرتبطة بالماء مثل الكركدن وأنواع مندثرة من المنطقة منذ بضعة آلاف من السنين، مثل الجاموس، الفيل، وحيد القرن والزرافة، كما تشهد وتدل على ذلك النقوش والرسومات.

كما أن هناك العديد من الرسوم الصخرية التي تدل على ممارسة الزراعة في منطقة الطاسيلي، ففي منطقة صفار (Safar) جسّدت الرسوم مجموعة من الأشخاص يحملون نوعا من القصب الطويل بشكل مذراة، وربما هم يقومون بذر الحبوب لأن أسفل هذا الرسم يوجد أشخاص كذلك جالسون يقومون بدرس الحبوب بأرجلهم[17]، ومشهد ثان يمثل رجلين منهمكين في خدمة الأرض،[18] علاوة على هذا هناك مشهد آخر في منطقة جبارين يمثل نساء يضعن أقنعة برؤوس الطير ويحملن سنابل، وهو مشهد ربما يوحي بتقديس الإنسان لربّات الزراعة[19]، كما أننا نجد في منطقة أونرحات (Oinarhat) مشهدا آخر يبين أشخاصا يعملون في الزراعة، ومشهدا آخر كذلك في نفس المنطقة يجسد أربعة أشخاص، ثلاثة منهم يعملون في الأرض والرابع يوضّح لهم طريقة العمل[20].

ونجد في الفن الصخري الممثل في الرسومات العديد من المشاهد التي تعبر عن البيئة الطاسيلية نذكر منها:

- رسومات تمثل راقصين في منطقة جبارين، ويضم المشهد ما يقارب من 20 شخصا يضعون أقنعة وهم ينظرون إلى السماء، مما يدل على طقوس استدرار المطر واستعطاف الآلهة من أجل خصوبة الطبيعة واخضرار الأرض[21].

- مشهد في تين تتزاريفت (Tin Tazarift) ويجسّد ستة أشخاص يرقصون ويحملون أدوات يجهل حقيقتها، وفي أسفل المشهد تظهر صور حيوانات غير مكتملة[22].

- مشهد في جبارين (Djebarine) يمثل محاربين يصطحبون قبيلتهم وماشيتهم في رحلة بحث عن الماء والكلأ[23].

- مشهد في أوزيناري (Ozéneare)، يمثل كذلك مجموعة من الرّماة في عملية بحث عن المراعي والعيون، حيث يشير الشخص الذي في المقدمة بيده إلى الأراضي من بعيد.[24]

- مشهد في تمنزوزين (Timenzouzine)، يمثل مشهدا لمجموعة من الصيادين يهاجمون الحمار الوحشي.[25]

وكذلك الأمر بالنسبة لرسومات منطقة الفينوسات (Vénus)، حيث يحلل الباحث مارسيا الياد علاقة إنسان الطاسيلي بالأرض من خلال هذه الرسوم بأنها علاقة مجسدة بالخصوبة، وأن خصوبة الأرض متضمّنة بالخصوبة النّسوية، فالحقل مثل المرأة، والعمل الزراعي أصبح يُمثّل بالفعل الجنسي.[26]

أما الشواهد الصخرية المتعلّقة بالإنسان والحيوان فهي كثيرة، فرغبة الصياد في تكاثر الحيوانات دفعته إلى عبادة بعضها، وتدل مشاهد القطعان الكبيرة على النماء والزيادة، ومن بين هذه المشاهد رسومات منطقة تيكادودوماتين (Tekadedoumatin ، حيث جسد النحات مشهدا من الرّعاة يجتهدون في جعل الأبقار تأتي في خط واحد[27]، كما نجد رسومات لأبقار ذات أثداء كبيرة في (تين تزاريفت) تدل على الخصوبة، ومشاهد أخرى في إيهرن (Ihran) تمثل قطعانا كبيرة من الأبقار والأغنام، ورسومات أخرى تعبّر عن التكاثر الحيواني كما هو مجسّد في منطقة انالودمان وإيهرن.[28]

كما طور رعاة البقر الطاسيلي طريقة لتربية الماشية، كانت تدهش دائما من لا يعرفها، إذ يبدو أن الحضارة البقرية قد بلغت في ذلك العهد أوجها فاكتسبت فنا راقيا يتعلق بطرق تربية الماشية التي تتطلب تعلما طويلا[29].

وقد كان تشييد القرى الثابتة هو إحدى المظاهر المميزة في المرحلة الأولى من العصر الحجري الحديث الذي يتميز بالاقتصاد الزراعي، وهناك ما يشير إلى أن الملاجئ والمباني الطينية لم تتغير في الصحراء أثناء هذه الفترة، غير أنها توسعت وانتشرت حول موارد المياه، وهو توسع لم تعرفه الصحراء طيلة عصورها السابقة. كما تطلع إنسان الطاسيلي إلى تأمين حياته الاقتصادية فتطلّع إلى القوى الطبيعية التي تتحكم في إنتاج محصوله الزراعي، فاتجه إلى تجسيم

هذه القوى في صورة جديدة من الآلهة كآلهة الأمومة التي كانت رمزا لفكرة الخصوبة والإنتاج.

5- الفكر الديني لإنسان الطاسيلي:

عرف الإنسان العبادة والدين منذ القدم، فأخذ يبحث عن آلهة تحميه وتقيه شر المخاطر وتجلب له المنافع ويلجأ إليها عند الشدائد والمحن، وكان لا بد له من استرضائها وتقديم القرابين لها، وقد عثر الباحثون في منطقة الطاسيلي على العديد من الآثار التي تعطي دلائل واضحة على وجود نوع من الفكر الديني، تمثله آلهة وحيوانات مقدسة وكائنات أسطورية وطقوس وفكر سحري روحاني أيضا.

أ- عبادة الآلهة والكائنات الأسطورية:

عثر الباحثون على العديد من الآثار الممثلة في الرسومات والتماثيل الحيوانية التي تدل على العبادة، ومن بين المعبودات نجد:

الآلهة الذكرية: هناك العديد من المشاهد الصخرية التي تجسد آلهة ذكرية منها مشهد الإله الكبير في صفار الذي يبلغ علوه 3.25 متر ويغطي مساحة تقدر ب 30 متر مربع ويحيط به شخصيات صغيرة وحيوانات [30]. ويظهر جليا أن المشهد كله يدور حول الشخصية المركزية (الإله الكبير) والعديد من النسوة يطلبن منه أن يمنحهن أولادا، فأيديهن مرفوعة بالدعاء، أما الحيوانات التي تظهر في المشهد فتمثل القرابين التي تقدم للإله الكبير، كما أن الجدار المنقوش تم اختياره بعناية فائقة ليكون بيتا للإله.[31]

ومن بين المعبودات؛ الإله الكبير الصياد في منطقة صفار، وهو ذو قرون وزوائد مع وجود حلقات حول الذراعين والساقين يحمل في إحدى يديه عصى طويلة وفي يده الأخرى سمكة، وهي من المشاهد التي تمثل الخصوبة الذكرية [32]، وتعد منطقة وادي جرات من المناطق الهامة، على غرار منطقة صفار وأونرحات التي تنتشر فيها المشاهد الجنسية[33]، ومن مشاهد صخرة أهانا (Ahana) مشهدٌ جنسي تشترك فيه شخصيات عديدة تدور حول شخصية مركزية تمثل كائنا أسطوريا يمكن أن يكون إله القوة الذكرية أو إله الخصوبة.[34]

الآلهة الأنثوية: من بين المشاهد الصخرية التي تجسد الآلهة الأنثوية نجد:

مشهد السيدة البيضاء في أونرحات: يمثل امرأة عملاقة تضع قناعا ولها قرنان عظيمان تشرف على المشهد كله، والشخصيات الأخرى الصغرى هي امرأة ذات قرون وأشخاص يعملون في الأرض وآخرون يشجعونهم، فوجود قرون دليل على أن المرأة من الآلهة الكبرى لأن القرون تدل على السلطة

والقوة[35]. كما أن هناك العديد من المشاهد والتماثيل التي تمثل نساء وتقديس الخصوبة والمرأة، منها مشهد في منطقة تامريت (Tamrit) شرق جانيت يمثل امرأتين عاريتين[36] ومشهد آخر في جبارين يمثل أربعة نسوة يرقصن وامرأة جالسة في نسق معين.[37]

ومن ضمن الكائنات الحيوانية والأسطورية الممثلة في المشاهد الصخرية نجد الأبقار في العديد من المناطق، خاصة في ايهرين تاهيلاهي Ihren (ahilahi) ومنطقة المسالك وموقع تين هنكاتن (Tin Hinkaten) وأصبحت قرونها رموزا للآلهة الأنثوية مثل السيدة البيضاء التي تحمل فوق رأسها قرنين كبيرين وتعتبر بمثابة ربة الخصب.[38]

كما أن هناك رسما للفيل في وادي جرات وطوله ستة أمتار، وفيلاً في منطقة تيسالاتين (Tissalatine)[39]، وفيلة بيضاء اللون قد تكون من الحيوانات الأسطورية[40]، كما يوجد حيوان وحيد القرن وهو بكثرة في وادي جرات، حوالي 119 مشهد، ويبدو أن لهذا الحيوان دوراً في الجانب الأسطوري بدليل وجود كائنات إنسانية برؤوس وحيد القرن في منطقة رهينوا (Rhino) في عرق إمريتن بفزان الليبية، والمشهد يمثل مصليا جالسا رافعا يديه مقابل هذا الحيوان.

ب- عبادة الشمس والقمر:

هناك دلائل على عبادة الشمس والقمر منها:

في منطقة تيسوكاي (Tissokai) ويمثل المشهد دائرة كبيرة تحيط بدائرة أصغر ذات إشعاعات وفي الجانب الأيسر من الدائرة الكبيرة نجد ثلاثة رؤوس لأبقار مع رمز الهلال وستة أنصاف دوائر بيضاوية، وفي الجهة الأخرى نجد شخصا يلمس الدائرة ومجموعة من الأبقار وشخصية مقنعة في وضعية رقص قد تكون امرأة[41]. من جهة يمكن القول أن هناك علاقة ممثلة بين القرون والهلال فكثيرا ما نجد هلالاً مرسوما مع الأبقار، ويمكن القول أن وجوده يجسد الطقوس التي تقام على ضوء القمر تمجيدا له، ففي مشهد السيدة الزنجية في صفار نجدها تحمل هلالا بكلا يديها مما يشكل دليلا على ارتباط الآلهة الأنثوية مع القمر والخصوبة[42].

الطقوس الدينية من خلال المشاهد الصخرية:

للطقوس الدينية مكانة هامة في حياة المجتمعات البدائية، وهذا ما نجده بكثرة لدى إنسان الطاسيلي أين تكثر المشاهد المعبرة عن هذه الطقوس، نذكر منها:

- مشهد في تين تاكلت (Tin Tekelt) يبين مجموعة من الراقصين يدورون حول شخصية غامضة ذو بطن كبير ورأس صغير وقرون ويديه مرفوعتين إلى السماء.
- مشهد في تين تزاريفت (Tin tzareft) يبين راقصين مقنعين يحملون رؤوس السهام، والمشهد غني بالرموز تمثل خيوطا وأنصاف دوائر تعطي طابعا سحريا[43].
- مشهد في منطقة صفار(Safar) يمثل مجموعة من الرجال والنساء يقومون برقصات طقوسية.
- مشهد في منطقة أوان تاماوت (Uan Tamouat) في الأكاكوس وتمثل رجلين يبدو أنهما ساحران يدفعان فتاة إلى عجوز كبير ربما تبين تعلم الأسرار الدينية من هذه العجوز ومشاهد أخرى تمثل شخصيات تلمس حيوانات برية قد تكون معبرة عن طقوس التلقين Initiation لإعطاء الشباب الشجاعة أمام الحيوانات.[45]
- مشهد في أونرحات (In Awanrhat) وماتالان أمازار (Matalan Amazar) يمثل رقصات سحرية ورموزا وأقنعة تدل على طقوس يقوم بها السحرة، ومشهد آخر في نفس المكان يمثل شخصية قضيبية (Personage Ithyphalique) يضع قناعا وله آذان كبيرة وقرونا، ساقاه منفرجتان يبدو أنه في وضع طقوسي.[46]

الرمزية في المشاهد الصخرية:

ظهرت الرمزية منذ القدم أين قام الإنسان الأول بالتعبير عن آرائه برموز معينة، فالرمز علامة على شيء ما وجوهره غير واضح بالنسبة لغيره، فهو قد يحمل معاني وتفسيرات مختلفة تبعا لنظرة الباحثين وقراءاتهم للرموز[47]. ففي المشاهد الصخرية للطاسيلي نجد رموزا تعبر عن مظاهر دينية وأساطير، وبعض من هذه الرموز يمكن تفسيرها بسهولة لوضوحها، بينما رموزٌ أخرى تبقى غامضة لعدم معرفة الباحثين بمعتقدات ونمط تفكير الإنسان في تلك الفترة ولم تكن رسوماته عملا تلقائيا بل كانت تتم وفق طقوس معينة نابعة عن معتقداته الروحانية، ومن بين الرموز والصور ذات الدلالات نجد:

- استعمال الألوان: فاللون الأحمر مثلا كان يرمز إلى استمرارية الحياة، وهذا ما نلاحظه في العديد من رسوم الحيوانات مثل الضباء العملاقة والأروية والزرافات[48]. واستعمل كذلك اللون الأبيض بارتباطه بالشخصيات الأسطورية والآلهة والأرواح مثل مشاهد الشخصيات السابحة في أونرحات ومشاهد أخرى

لحيوانات وكائنات أسطورية باللون الأبيض في صفار[49]. إظافة إلى اللون الأصفر الذي له علاقة بطقوس الدفن كما هو واضح في موقع تين هناكتن.
- استعمال الأقنعة: فالعديد من الرسوم الصخرية تعبر عن الرأس المقنع؛ فهناك أقنعة برؤوس الحيوانات (Théranthropes) بحيث يعطي الشخص لنفسه مظهرا يشبه الحيوان أو الكائن الأسطوري[50]. وربما يمكن أن يعطي انطباعا مغايرا مثل حماية المقنع من القوى أو الأرواح الشريرة أثناء الطقوس أو الحصول بشكل مؤقت على صفات الكائن الذي يمثله القناع.[51]

خلاصـــة:

دلت الأبحاث الأثرية ولا تزال على أن الشمال الإفريقي من أقدم المناطق التي استقر فيها الإنسان ومارس مختلف الأنشطة التي تلبي حاجياته وفي احتكاكه الطويل ببيئته، ونحن لازلنا بعيدين عن إدراك ضغط البيئة الحاسم كقوة مؤثرة في التطور الإنساني، ومن الواضح أن كل ذلك قد حصل بفعل قدرات فكرية استثنائية تماما، حيث تعتبر نقوشه التي خلفها خطوة هامة في تطور قدراته التعبيرية سرعان ما وصلت إلى التعبير بالرموز والكتابة قبل العصر التاريخي، فهو يعتبر دليلا عميقا على أنها شهدت حضارة فكرية وعقلية في فترة ما قبل التاريخ، وهي على أية حال مصدر رئيسي للتعرف على الفكر الإنساني وقتذاك.

الهوامش:

(1) النيوليتي (néolithique) أو العصر الحجري الحديث مشتقة من الكلمة الإغريقية (nios) وتعني الجديد و (lithos) وتعني الحجارة ثم أصبحت بمعنى العصر الحجري الحديث.

(2) تعني كلمة الطاسيلي السلسلة الجبلية التي يغطيها السواد، أما آجر فقد اختلفت الآراء حول معناها، فبينما يعرفها الباحث إبراهيم العيد بشي بجلد "الثور المسلوخ" أو "رأس الأقرع" نجد لها معنى آخر في الدراسات الأجنبية عند كل من لورد (Leredde) وهنري لوت (Lhote) حيث قرنوها بالنهر أو البحيرة والمعنى الثاني هو المنتشر أكثر في الدراسات، انظر كذلك :
Leredde (C), Etudes Ecologique et Phylogéographies du Tassili et Nil, Alger 1957, TII, p47; Dubief (J) L'Ajjer Sahara central, édition Karthala, France, 1999; Lhote (H), A la découverte des fresques de Tassili, Paris, 1958.

(3) محمد العيد بشي، تاسيلي ناجر، البنية الجغرافية والحضارية، دار الحبر، ج1، 2009 ، ص82.

(4) نفسه، ص 82.

(5)Dubief (J) L'Ajjer Sahara central, p 25.

(6) قرار 168 من الجريدة الرسمية المؤرخ في 26 جويلية 1972م

(7)Dubief (J), op cit, p 25

(8)Ibid, *pp335-338.*

(9)Ibid. p332.

(10) Ibid. p332

(11)Ibid. p332.

(12)Burroughs (W.J), *Climate change in prehistory, the end of Reign of Chaos*, Cambridge university press, 2005.p 294.

(13)Leredde (C), op cit, pp 47,48.

(14)ibid, p151.

(15)Burroughs (W.J),op cit, p 278; Aumassip (G), *"la recherché Préhistorique en Algérie, but et méthodes"*,Revue de Préhistoire et d'Archéologie culturelle, N:01,C*RAPE*, Alger,1983, pp 29,30.

(16) المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا، من كتاب تاريخ إفريقيا العام، إعداد اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام، اليونسكو 1980م ص591.

(17)Lhote (H),1958, p80.

(18) Lhote (H),1958 p134

(19)Lhote (H),1958, p80.

(20)Dieterlen (G), Hampaté (A), Bâ, " *Les Fresques d'epoque Bovidienne du Tassili et les tradition des Paul*",J.S.A, vol, 36 n.1, p 149

(21) تعد منطقة جبارين من أغنى مناطق الطاسيلي بالرسومات الصخرية، ذلك أنها تحوي أكثر من 5000 موضوع رسم في منطقة لا تزيد مساحتها عن 600 متر مربع، أنظر: Lhote (H), 1958, p82, 134.

(22)Le Quellec (J.L), 1993 ,p187

(23)Lajoux (J.D), *Tassili N Ajjer, Art rupestre de Sahara Préhistorique*, Ed- du Chêne, Paris 1977, p 134

(24)Ibid. pp 126, 127.

(25)p144. Lhote (H),1976,

(26)Lhote (H),1958 p134.

(27)Lhote (H),1976,p144.

(28) Lhote (H),1958, p120.

(29) المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا المرجع السابق، ص 612.

(30)Lhote (H),1958, p20.
(31)Ibid, p 192.
(32) Hachid (M), Tassili Najjer Au Source de l'Histoire il ya 50 siecle avant les Pyramides, ed- Mediterranean. Paris 1998, p297.
(33)Ibid, p 266.
(34)Lhote (H), Les Gravures Rupestre de sud Oranais , mémoire de C.R.A.P.E, N°16 , Paris,1976, p 101.
(35)Sèbe (A), Tikatoutine 6000 ans ,l'Art rupestre Saharien, collection Tagoulmouste, Silva, 1991, p 26.
(36)Lhote (H),1958, p 56.
(37)Lajoux (J.D) p116.
(38)Hachid (M), 1998, p 146.
(39) Sèbe (A),1991, p182.
(40)Hachid (M), 1998, p 211.
(41)Lhote (H), Vers d'autres Tassili, Nouvelles découverts au Sahara. Ed- Qrthqurd. Paris, 2 ed 1976m p 92.
(42)Le Quellec (J.L), Symbolisme et Art rupestre du Sahara, ed- Harmattan, Paris, 1993, p 191.
(43)Ibid, p 214.
(45)Hugot (H.G), Le Sahara avant le Désert, ed- Héspérides. Paris, 1974, p159.
(46)Lajoux (J.D), Op cit, p 55.
(47)Gourhan (A.L), Les religionsde la Préhistoire (Paleolithique), presses universitaire de France, 1964, p148.
(48)Hachid (M), 1998, p 148.
(49)Hachid (M), 1998, p 218..
(50)Hachid (M), 1998, p 200.
((51) Le Quellec (J.L), Op cit, p 269.